الأخبار
al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ الصدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأتحري
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب: بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كومكورد ـ الطابق الثامن
■ للفاكس: 01759500، 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع: شركة الأوائل 15ـ01/666314 ـ 03/828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper

# حزب الله بين جيلين: مفارقات قبل الفتح وبعده!

**صادق النابلسي ***

مضى أكثر من ثلاثين عاماً على انطلاقة حزب الله ونشأته الأيديولوجية، ولا يزال يعمل ضمن مقاربة التمييز بين الهوامش والتكتيكات التي تتطلّبها طبيعة الأعمال الميدانية الواقعية، وتلك المقوّلات والمبادئ التي تنبع وتصدر من القيم الإسلامية الثابتة. مقاربةٌ تحيط بتحرّكات الروح وحركات الخارج، وكل ما هو واسع وعريض في الحياة السياسية والثقافية والدينية. ويكون من نتيجتها أن تثير بعض المسائل تشكّكاً وتكون علامة على سوء الفهم. وفي أيّ تجربة إنسانية، مهما بلغ نبل الأفكار في تطلّعاتها وصدق الرغبات في أفعالها، فهي لا تنجح تماماً في سدّ النقص الذي تجليه طبيعة الاحتكاك بالواقع، وكلّ ما تحاوله هو تجويد أساليبها وتقليل أخطائها ومعايبها!

هذه الحقيقة تعكس خيطاً من الوعي يربط بين جيلين، أحدهما نشأ «قبل الفتح» والآخر بعده. أو يمكن أن نفترض محدّداً آخر له يمكن أن نصطلح عليه «ما قبل تحرير عام 2000» وما بعده. جيلٌ كان «يستكشل» من فكّ زر الرقبة باعتباره سمة من سمات المؤمنين، وآخر يستهوي «موضات الجينز والتي شيرت»، ويسبغ عليها تعديلاته التي لا تظهره خادشاً للحياء ولا مناقضاً للعادات الأخلاقية الواضحة. قد يحتجّ بعض المخضرمين من الرعيل الأول، ليصف جيل المقاومة الجديد بأنّه بلا جذور ثقافية. فبينما كان الجيل الأول يقرأ ويناقش حول مفاهيم الإسلام وقضاياه المعاصرة والتراث وأحواله ونظرة الإنسان إلى الكون والمجتمع، ويتزوّد بمسائل الفقه التي تعينه على أداء العبادات بأحسن صورة، فإنّ هذا الجيل تغلب عليه العصرانة التقنية التي لا تولي مسائل الدين والحياة العمق المطلوب. يستعين بالميسر والقليل منها، ولا يُقيم وزناً للأفكار بل يهمّه التفاعل مع الأشياء، في حين أنّ المعجزات الكبرى مرتبطة دائماً بالأفكار لا بالأشياء كما يذهب إلى ذلك مالك بن نبي. فلقد كانت تلك الأفكار هي الإرهاصات التي أذنت بالتغيير الثوري وبالانتصارات التي لاحت للجيل الجديد وأمدّته بالزخم والقوة والمجد.

يمكن أن نُشبّه حركة المقاومين الأوائل بحركة إحياءٍ لأرضٍ طال جفافها. حركةٌ حملت في ثناياها الوعي والحماسة في تعزيز الدين كمنهجٍ تفكيرٍ وحياة، وكأسلوب تنظيمٍ جماعي. ومن هذا المنطلق، أولى هؤلاء الأوائل اهتماماً شديداً ببناء الذات على المستوى المعرفي والسلوكي، وأدركوا باكراً فلسفة الصراعات التي تدور رحاها على أرضهم وعلى ساحات المنطقة العربية والإسلامية، مستضيئين بكتابات وكلمات الإمام الخميني والإمام محمد باقر الصدر والإمام السيد موسى الصدر وحركية علماء الدين الطليعيين، كأساس في تكوين رؤية أفقه الثقافي وتجذّر علاقته الإيمانية، وعلامة على التفاوت النوعي بين إمكانات الجيل الأول والثاني ومحصّلات تكوينهما. ومن يستمعْ إلى خطاباته، يلاحظ بقوة انحيازه العاطفي إلى أجواء ومناخات وأدبيات جيله.

ففي الرابع والعشرين من شباط / فبراير 2018، وخلال كلمة في الذكرى الأربعين لتأسيس حوزة الإمام المنتظر في بعلبك، أفاض سماحته في الحديث عن صعوبات المرحلة التأسيسية وشظف العيش والصبر والتعب والعناء والجهد الشخصي، وعن الإبداع والبحث عن الجديد، وربّما كانت صرخة الحرية هي نتاج هذه العذابات، من مناخات ثقافية تطغى عليها النزعة إلى التساؤلات وشهوة البحث الحر في كلّ مجالات الفكر والفن والأدب. الثاني، أبناء البرجوازية الدينية الذين عملوا لتثبيت أقدامهم في مراكز النفوذ والقوة داخل مؤسسات الحزب التنظيمية والعسكرية أو خارجها، عبر الأعمال التجارية المتنوّعة.

ثالثاً، الذين تسرّبوا من بيئات يسارية وقومية. فقد حفرت الانتصارات التي حقّقتها المقاومة والأنموذج الثوري الرائد، المتعالي عن الحسابات الطائفية، عميقاً في شباب يتطلّع إلى وطن وأمة خلّاقة لا تستكين للضعف ولا تتساكن مع الخيبات. وهذا الخليط يشير، في جانب منه، إلى أنّ قيادة الحزب لم تتعصّب للشكل القديم في ضمّ الراغبين إلى أجهزتها المدنية والعسكرية، وإنّما فتحت ذراعها للأشكال الأخرى في المجتمع، ولكنّها أصرّت من ناحية المضمون على أن تستوعب هذه الأشكال مبادئ الحزب

(مروان طحطح)

وهويته وتطلّعاته.

> استطاعت التجربة الحديثة، خلال عشرين عاماً، أن تصل إلى درجة من النضج والأصالة فتفرّعت عن جذور الشجرة الأولى فروعٌ عديدة

استطاعت التجربة الحديثة، خلال عشرين عاماً، أن تصل إلى درجة من النضج والأصالة فتفرّعت عن جذور الشجرة الأولى فروعٌ عديدة. فمثلاً نشأ خطٌ يمثّل المقاومين الأوائل، من خلال محاكاة تجربتهم وتقليد مسلكهم واسترجاع أرشيفهم النابض بالحسّ الثوري وتعميمه على وسائل التواصل الاجتماعي، ومن خلال أنشطة وإنتاجات فنية متنوّعة، في محاولة لاحتواء الاستلاب الثقافي والهشاشة الروحية التي يحياها قسم أصابته الحياة بالبرودة الإيمانية. علاقة هذا الخط أشبه ما تكون بالارتباط بالتراث «المجيد»، يعايش هذا الخط بفرح المحاولات الأولى، لشهداء كان لهم الفضل في صناعة القالب الجهادي لمسيرة حزب الله. ويعتبرونهم، أي الشهداء، الجدار الذي يجب الاستناد إليه للوقاية من شر الانحراف. الخط الثاني، يمثّل التوجهات «الاشتراكية»، أولئك الذين أرهصت بهم وقائع الأزمات الاجتماعية والطائفية، وشعروا بضرورة الالتزام بالموضوعات الوثيقة الصلة بحياة الناس، وأنّ الحزب مُطالب بالانخراط أكثر في القضايا الاجتماعية والتمرّد على الصيغة الطائفية، لبناء وطنٍ يحلم به أبناؤه وتسوده العدالة والمساواة. ومن الواضح أنّ هذا الخط يجعل القضية الاجتماعية أولويّةً على القضايا الأخرى، لكن من دون أن يقوم بفصل متعسّف مع البعد الأهم في وظيفة الحزب وهي المقاومة. أدبيات أفراد هذا الخط، الذين أطلوا بقوة من بوابة الأحداث الأخيرة والأزمات المعيشية الضاغطة، تلحّ على ضرورة تذويب المسافة بين المقاومة والحياة. ولكن في مكان ما، يقف هؤلاء على النقيض من الخط الأول، لجهة التركيز على احتياجات الإنسان المادية في مقابل تهميش القيم الروحية، على نحو تكون الأصالة للجسد أولاً وبالذات على الروح ثانياً وبالعرض.

الخط الثالث، يمثّل الصاعدين والطامحين بغدٍ أفضل، هروباً من مرحلة التخلّف الاجتماعي والتهميش السياسي الذي لحق بأبناء الطائفة الشيعية، منذ تأسيس الكيان. أولئك، ونتيجة احتكاكهم بالبيئات والطبقات الاجتماعية والطائفية المرفّهة، والنافذة بفعل التفتّح السياسي الذي أبدته قيادة الحزب، أو بسبب توازنات ومصالح وعلاقات ما بعد الانتصارات التي تأتي محمّلة في العادة بمزيد من المنافع، نجدهم قد تمرّدوا على الحياة الأولى أو حياة آبائهم القاسية. وباتوا ميّالين إلى الانصهار في بوتقة الإنسان العصري والتماهي مع المحتوى الاجتماعي للطبقات، التي تُعلي من شأن «البرستيج» والوجاهات والعلاقات العامّة اللينة والطيبة.

الخط الرابع، يمثّل الحركة الحديثة للمقاومة، والتي أرسى دعائمها عماد مغنية مواكبة للتطوّرات الكبيرة مع العدو الإسرائيلي بعد حرب تموز 2006. لقد نشأ هذا الخطّ على معايشة حارّة وعميقة للتحدّيات التي أعقبت الحرب والمهام التي يجب أن يطّلع بها. أفراده يضعون نصب أعينهم الالتزام التام بأهداف القيادة الممثلة بالأمين العام السيد حسن نصر الله، ويتبنّون في صراحة مذهلة، أو ما يُعرف ضمن أدبيات الحزب «التسليم بالتكليف» بكل أطروحة القيادة فكرياً وسياسياً واجتماعياً، ولديهم الاستعداد لتنفيذ كل ما تطلبه القيادة منهم، سواء كان ذلك في «أقصى اليمين أو أقصى الشمال»، من دون اعتراض ومراوغة وتواكل، لأنّهم يؤمنون حتى النخاع أنّ قائدهم (السيد حسن) هو رسالتهم وسلاحهم وثقتهم ومصيرهم ودنياهم وأخرتهم وحلمهم بالشهادة والنصر. وقد تمّ تأهيلهم وتطوير مواهبهم المعرفية والبدنية، ليشكّلوا ذراع الحزب في المحطات التاريخية المقبلة. وقد وجد السيد نصر الله سرّه فيهم، خلال تجربة الدخول في الحرب السورية ضد الإرهابيين التكفيريين، وكان رهانه عليهم في محلّه، وقد ترجم عاطفة ظاهرة ومشاعر مختلفة تجاههم. وقد استعار إحدى الزيارات الواردة بحق أئمة أهل البيت عليهم السلام، المعروفة بـ«الزيارة الجامعة لبقول بحقهم: «كيف أصفُ حُسْنَ ثَنائِكُمْ، وَأُحْصِي جَميلَ بَلائِكُمْ، وَبِكُمْ أَخْرَجَنَا اللهُ مِنَ الذُّلِّ وَفَرَّجَ عَنّا غُمَراتِ الْكُرُوبِ، وَأَنْقَذَنا مِنْ شَفا جُرُفِ الْهَلَكاتِ...»، في إشارة عميقة إلى ما تشتعل فيه أرواحهم من نبل الولاء وصدق الإيمان.

هذه الخطوط الأربعة شكّلت، إلى حدّ ما، المحتوى الحديث للجيل الجديد. الأصالة لها حظّ بالتقليد والمحاكاة، وما زالت تنحدر من التاريخ عبر الحضور المتوهّج والدافق لكلمات الأمين العام الذي يرى الجيل الجديد تطويراً في حقيقته لجيل الأوائل لا ثورة عليه. والحداثة لها درجة بالمنجزات والرؤية والتنوّع من دون تفلّت عن البناء الكلاسيكي لهوية المقاومة وقيود توجّهاتها. وهي القيود التي تستلزم اعتبار جيل «المهاجرين والأنصار» وحدة واحدة لا تتجزّأ.

ممّا لا شكّ فيه، أنّ الجيل الحديث سيطرت عليه نشوة الانتصارات وأمجادها ومظاهر القوة وإيحاء العلاقات المستندة إلى المقدرات الوفيرة وكيان مؤسّسيّ متين يحيطه من كلّ جانب بالدعم المادي والمعنوي، فيضاعف ذلك أحياناً من غروره وزلّاته. بينما عاش الجيل السابق في واقع صخري مليء بالصعاب والمتاعب النفسية والاجتماعية والتحديات الوطنية وهموم العصر وندرة الموارد وكثرة الأعداء وقلّة الأصدقاء. لكنّه لا يتخطّى ما على أساسه انطلقت مسيرة الحزب، وما يضعهم في مكان واحد هو الإيمان بمبدأ «ولاية الفقيه» التي تجعلهما يقفان على أعمقّ ما في هذه الأرض، وعلى أعمقّ ما في هذه العقيدة، وعلى أعمق في هذه الأمّة من قضايا.

في الحقيقة، لم يكن الجيل الحديث بديلاً من الجيل المؤسّس، ولكن كما في الحديث المشهور عن الإمام علي (ع): «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». فلكلّ زمان رجال. لذلك، بدا هذا الجيل غريباً بعض الشيء، ميّالاً إلى الدعة في تصرفاته، مولعاً بـ«النارجيلة» والموضة ومهتمّاً بتطبيقات الميديا والتواصل الاجتماعي. كما أنّ الأحداث السياسية والتطوّرات «الرقمية» وصلت، أحياناً، ببعض هؤلاء إلى ذروة التفرّد والتشتّت، ما لا يتيح لهم الاستقرار على رأي موحّد في مقاربة قضايا الحزب والداخل اللبناني، أو قضايا الخارج بملفّاته الشائكة، وهذا ما ينعكس بشكل سلبي على توازن الصورة العامة، وخصوصاً عندما تتم مقارنة ذلك بسلوكيات الجيل السابق الذي نشأ مسكوناً بالحذر والخوف من العلانية والظهور والتمايز، ومهجوساً بالروية والترابية والرهافة الأدبية.

ربما يرى البعض أنّ عام 2000 وما بعده، يشكّل نقطة تحوّل لجيل يبحث عن عوامل التجديد والانطلاق ويعاند لإثبات نفسه، ولا يريد لهذه المسيرة أن تجمد في قوالبها القديمة، ويسعى إلى أن يقدم روايته هو بأساليبه الفنية والثقافية والإيمانية، وإن كان من شأن ذلك أن يكشف التناقض بين أدوات الماضين والحاليين.

فمهما كان، لا يمكن إخفاء المفارقات بين جيلين، خاضا تجارب مريرة في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي وصولاً إلى التجربة الآسية في سوريا، ولكن ليس إلى الدرجة التي نتصوّر فيها الحد القائم بينهما، كأنّه سور حديدي يُعمل على تكسيره. ولا يبدو وصف التحلّل عن تراث المؤسّسين سليماً، فما نشهده من فعّاليات وإحياءات لمناسبات دينية لم يتوفّر الجيل المؤسس على فرص لإبرازها يُظهر العكس تماماً. ولكن لكل جيل منطقه وأدواته ولغته، والمهم أنّ قنوات التفاعل المرن بقيت مفتوحة بإدارة دقيقة من الأمين العام نفسه، حتّى لا يتعطّل نمو هذه المسيرة عن روح العصر، وعن روح الأصالة الثورية التي منها تفجّرت كل ينابيع الانتصارات!

* كاتب لبناني، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية الدولية

# الأيديولوجيا بدلاً من التنمية

**سمير طاهر ***

يعيد رحيل المعمار رفعت الجادرجي (في نيسان / أبريل الماضي) تذكيرنا بصفة سلبية ومؤسفة في الثقافة والسياسة في العراق الحديث: إنها الانقطاعات المتكرّرة في مسيرة التنمية. فأمد طويل، كانت كلّ سلطة جديدة تحرص، قبل كل شيء، على اجتثاث آثار السلطة السابقة، حتى لو كانت منجزات أو خططاً ذات نفع وطني عام، لا لشيء سوى إرضاء للثارية السياسية، الختم المميز لتقاليد السياسة العراقية. كان الجادرجي قد أشار، بألم، إلى أحد الأمثلة الثقافية لهذه الظاهرة، وهو هدم السلطة لنصب الجندي المجهول الذي قام هو بتصميمه، واستبداله بنصب جديد. فرغم أنّ النصب القديم لا يتضمّن أية إشارة مباشرة إلى عبد الكريم قاسم وعهده القصير، إلّا أنّ «حكومة الثورة» لم تقدر أن تقاوم عنصر الثارية هذا. في تعليقه على الواقعة، قال الجادرجي ما معناه: إننا مهما أنجزنا من أعمال متقدمة، فإنها لا تكفي وحدها للبناء الحضاري ولتكوين ذاكرة المجتمع، وإنما يتحقّق هذان الهدفان بديمومة تلك الإنجازات والحفاظ عليها. وموضوع الرمزية في كلامه، وفي قصة هدم نصب الجندي المجهول، هو أنّ ما حصل مع المنجزات الثقافية في العراق، شكّل مصغّر لما حدث في التاريخ السياسي للدولة، وفي المسير الثقافي للمجتمع. فافتقار الإنجازات الثقافية إلى الديمومة، أو ما يمكن أن ندعوه الانقطاعات الثقافية، هو أحد أشكال الانقطاعات التنموية المتكرّرة في العراق، حيث كلّ خطوة إلى الأمام، من أيّ نوع وفي أيّ قطاع كان، سوف «تُهدم» يوماً ما، على يد سلطة قادمة، وكأنها لم تكن. لقد سادت هذه الوتيرة لعقود طويلة خسرها العراق من عمره الحضاري، كان يمكن أن تكون عقوداً من التراكم الحضاري.

هذه الصفة، وكذلك جذرها النفسي (الثارية السياسية)، العراقيتان بامتياز، تقع مسؤوليتهما على الأحزاب الأيديولوجية التي هيمنت على الساحة السياسية في العراق طوال النصف الأخير من القرن العشرين، ليس فقط بسبب كون الأخيرة ـ جميعها ـ ذات عقلية إقصائية وعُنْفية، وإنما ـ وهو الأهم ـ لأنّ أولويتها ليست الدولة، وليست ـ بالتالي ـ النهضة الاقتصادية والاجتماعية، وإنّما السلطة بحدّ ذاتها (رغم أنّها جميعاً تنكر هذا الآن في إعادة قراءاتها للماضي!). وبسبب الصراعات الأيديولوجية العقيمة (التي لم تدر حول قضايا اقتصادية ولا اجتماعية، ولم تذكر فيها كلمة تنمية مطلقاً)، لم يشهد العراق مسيرة تنموية مستمرّة، وإنما بدايات متعدّدة لمشاريع تنمية تموت قبل أن تكتمل.

افتتح العهد الجمهوري (عام 1958)، بإلغاء أوّل مجلس حكومي للتنمية (مجلس الإعمار في العهد الملكي)، والذي كانت قد خُصصت له 70% من عائدات بيع النفط، ولم تكن مرّت على تفعيل المجلس سوى سنوات قليلة جداً، فلم يلحق أن يكمل تنفيذ رؤيته الاقتصادية، والبديل الذي وضعته الثورة، بعد سنتين من عمرها، كان خطة التنمية الخمسية التي بدأ تفعيلها عام 1962، أي أنّها بالكاد اتّمّت عامها الأول عندما ماتت ودُبح زعيم الثورة، وقتها، كان لدى السياسيين والعسكريين ما هو أهم من التنمية وخطتها، وإنما تجميدها، فانشغلوا سنوات عدّة بإزاحة بعضهم البعض، حتى نجح «حزب البعث» في تنفيذ انقلابه (عام 1968)، فالغى كل خطط النظام القديم وراح يجتثّه من الجذور. وبعد سنوات عدّة من الصراعات الداخلية، ينجح النظام الجديد في تأميم النفط (حزيران 1972) وعندها فقط تنطلق أكبر عملية تنمية في تاريخ العراق الحديث، وأطولها عمراً بمقاييس العراق، حيث استمرّت حتى عام 1980 عندما قرّر الديكتاتور صدّام حسين حرق كلّ ثروات البلاد، بل وثرواتها المستقبلية أيضاً التي سُجّلت باسم الدائنين ومصدّري الأسلحة، في حرب جنونية مدمّرة مع إيران، على مدى ثماني سنوات كاملة، جُمّدت خلالها ـ بالطبع ـ كل مشاريع التنمية. وعندما انتهت الحرب، لم يكن أحد في السلطة يتحدّث عن أية تنمية، فقد كان الاهتمام مركّزاً على أسئلة عقيمة مثل: كيف السبيل للخروج من بئر الديون الخرافية التي موّلت الحرب؟ وكيف سنأمن جانب عشرات الألوف من المسرّحين من الجيش، والآف الخرّيجين، في بلد منهك ومفلس؟ ويبدو أنّ القنوط، والجنون أيضاً، انتهيا بالديكتاتور إلى نتيجة مفادها أنّ شرّ حرب أخرى، ونهب بلد «شقيق» سيكونان الحلّ السحري لكلّ تلك الأسئلة، ويفتح خزائن علاء الدين. ونحن نعرف ما حصل بعد ذلك.

العراق، إذن، لم تُتح له أبداً الإمكانية لبناء قصته التنموية. إنّه لم يخض التطور الاجتماعي المتكامل لفترة زمنية كافية (تترسّخ خلالها تقاليد الحداثة، ويتمرّس الناس في القيم الجديدة)؛ وهذا النقص حرمه من تحقيق التراكم الثقافي المطلوب والضروري، لتكوين الذهنية الحضارية الجمعية أو «ذاكرة المجتمع»، كما دعاها رفعت الجادرجي. إذا كانت الطبيعة البشرية، كما تقول نظرية التناشز الاجتماعي، تجد صعوبة في اللحاق بسرعة التطور الحضاري، وبالتالي تظلّ القيم القديمة كامنة في الأفراد إلى أمدٍ بعيد، حتى بعدما تتجاوزها حركة المجتمع المادية، فكيف سيكون الحال وحركة التطوّر المادي هذه، نفسُها، تنقطع ما إن تبدأ، وتنتهي في كل مرة نهاية صادمة: انقلاب دموي أو تصفيات جماعية أو حرب شاملة؟ ربما لم يُبتَلَ شعبٌ آخر، على حدّ علمي، بمثل هذه الظاهرة، وعلى هذه الدرجة من التطرّف.

العاقبة السيئة لهذا الخلل هي، كما يمكننا أن نتوقّع، إصابة البنية الثقافية للمجتمع والبنية الذهنية للفرد بهشاشة مستديمة. وهذه الهشاشة، بدورها، تُغري الأنماط الثقافية البدوية في حالة العراق تحديداً)، فتهاجم الوعي الجمعي، مهاجمة الفيروس لجسد ضعيف المناعة، وتصادره. وقد حصل هذا الأمر، بحذافيره، عند سقوط الدولة العراقية (عام 2003)، وتفتيت البلاد قومياً وطائفياً، وإلى اليوم. فما يوجد في العراق، اليوم، ليس دولة، وإنّما هو عصر استيلاء البداوة على الدولة المدنية. وإذا كان هذا الطرح يذكّرنا بنظرية علي الوردي، فإنّ ما لم يتخيّله الوردي هو أنّ هذه العملية التي كانت في الماضي تحصل بشكل طبيعي، صار يتمّ تخليقها اليوم في مختبرات السياسة الدولية؛ والمشهد الرمزي الذي يختزل كل شرح لهذه الموضوعة، هو مشهد وقوف الجنود الأميركيين مكتوفي الأيدي، وهم يتفرّجون على نهب الغوغاء لدوائر الدولة. هذا هو الثمن الرهيب الذي ندفعه، وسنظلّ ندفعه إلى أمد طويل، لقطعنا المتكرّر لمسيرة التنمية بسكّين الجدالات الأيديولوجية العقيمة.

> ما يوجد في العراق اليوم ليس دولة، وإنّما هو عصر استيلاء البداوة على الدولة المدنية

*كاتب عراقي

# اختلاط التعابير

**عبد الحميد فاخوري ***

منذ فترة، كتبت عن اختلاط المفاهيم بالنسبة إلى قضية العرب الأولى: فلسطين. وتوصلت إلى أنها قضية عربية، قبل أن تكون قضية فلسطينية فقط، ومن ثمّ يجب العمل على استعادة كامل التراب الفلسطيني، وليس الاكتفاء بالعودة إلى حدود ما قبل عام 1967، وأخيراً النضال بمختلف أنواعه لاستعادة أرض فلسطين، بما في ذلك الكفاح المسلّح. والآن، أتطرّق إلى اختلاط التعابير التي تتعلّق بهذه القضية. وأفصّل فأقول: إن هناك رابطاً وثيقاً بين اللغة والفكر، ولقد ثبت أنّ اللغة ليست فقط تعبيراً عن الفكر، وإنّما لها تأثير مباشر عليه، بحيث إنّ انتقاء التعابير اللغوية يؤدي في النتيجة إلى أن يجري تبنّيها على مراحل من قبل المواطنين عامة، وأهل الفكر والسياسة على وجه الخصوص. ولأعطي على ذلك أمثلة، ولا شك في أنّها ليست الوحيدة التي يجب تصحيحها.

أول مثل، هو ماذا نُطلق على العدو الإسرائيلي، أنَقول إنّه إسرائيل، أو دولة اليهود، أو الكيان الإسرائيلي، أو الكيان الصهيوني؟ التعابير الثلاثة الأول، هي نوع من الاعتراف بالعدو. أما تعبير «الكيان الصهيوني» فواضح أنه لا يعترف للعدو بدولته، إنّما بأنّه كيان قائم نشأ على أساس فكر متعصّب ومزوّر للتاريخ.

مثل آخر هو كلمة المستوطنات، والمستوطنة في اللغة هي عبارة عن منطقة خالية استوطن فيها شعب ما. وهذا أمرٌ لا ينطبق أبداً على ما يسمّى بالمستوطنات الإسرائيلية، فهي في الواقع عبارة عن أراضٍ اغتُصبت من شعب مقيم فيها وهُجّر مواطنوها بالقوة، فكيف يمكننا كعرب أن نقبل بهذه التسمية؟ التعبير الصحيح، يجب أن يكون مستعمرة يهودية بدلاً من مستوطنة. من جهة ثانية، أدّى الخلاف بين «فتح» و«حماس» وانقسام السلطة بينهما، إلى استعمال تعبيرين أي الضفة الغربية وقطاع غزة، ورسّخ في أذهان الناس أنّهما كيانان منفصلان وهما، مدانان في هذا الشأن، وزال اسم فلسطين بالكامل. في رأيي، يجب أن يتوقف ذلك فوراً، وإذا بقي الخلاف على حاله، وهو أمر مستهجنٌ كلياً، فيجب أن نقول فلسطين ــ الضفة الغربية وفلسطين ـ قطاع غزة.

المثل الثالث، بماذا ندعو العرب في الكيان الصهيوني: هل نقول إنهم عرب إسرائيليون أو فلسطينيون إسرائيليون؟ في نظري، إنّ التعبيرين خاطئان وهما بمثابة اعتراف بالكيان الإسرائيلي، ويجب أن يُستبدلا بتعبير «فلسطينيون تحت الاحتلال»، للتركيز على أنّ الكيان بكامله، أرضٌ مغتصبة ويجب تحريرها.

المثل الرابع، هو كلمة تطبيع أي عودة الأمور أو العلاقات إلى طبيعتها بين كائنين اثنين. هذه الكلمة مستعملة بكثرة في لغتنا المتداولة. ومع أنّ هذه الكلمة يتبعها في معظم الأحيان استنكار لمحاولة إعادة العلاقات سرّاً أو جهراً، بين العرب والعدو، إلا أنّ هذا التعبير يجب أن تتنبه كلمة خياتي فيصبح «التطبيع الخياني»، كي يرسخ في أذهان الناس. إن كلّ إجراء يتعلّق بالتطبيع الإعلامي والسياسي والاقتصادي والإعلاني، هو عبارة عن خيانة موصوفة للقضية.

أورد هذه الأمثلة، على أنّها بعضٌ من كلٍّ ولا شك في أنّ هنالك أمثلة أخرى يمكن التطرّق إليها. وأعود وأشدد على أنّ التعبير الخاطئ يتسلّل إلى لا وعي الناس، فيتحوّل مع الزمن إلى اعتماده فكرياً وليس لغوياً فقط. أنا على ثقة بأن هنالك أمثلة أخرى، يمكن تصحيح التعابير فيها، إلّا أنّني أوردت بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

* كاتب وسياسي لبناني